

العجوز والسيدة الثانية

بقلم: د. عبد الحميد عبد القصور
رسم: د. إسماعيل دياب
إشراف: د. محمد مصطفى



المؤسسة العربية الحديثة

الطبعة الأولى: ١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة

طبع في مصر

لَمَّا انْتَهَتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ مِنْ سَرْدِ حِكَايَتِهَا الْغَرِيبَةِ ، تَعَجَّبَ
الْخَلِيفَةُ ، وَتَعَجَّبَ الْحَاضِرُونَ ، وَنَظَرَ الْخَلِيفَةُ (هَارُونَ الرَّشِيدُ) إِلَى
السَّيِّدَةِ الثَّانِيَةِ قَائِلًا :

- وَأَنْتِ مَا هِيَ حِكَايَتُكَ ، وَمَا هُوَ سَبَبُ الضَّرْبِ الَّذِي رَأَيْتَاهُ عَلَى

جَسَدِكَ ؟

فَقَالَتِ السَّيِّدَةُ الثَّانِيَةُ :

- لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّي وَأَنَا صَغِيرَةٌ ، فَرِثَانِي أَبِي حَتَّى كَبُرْتُ .. ثُمَّ
تَوَفَّى وَالِدِي وَتَرَكَ لِي مَالًا كَثِيرًا .. وَلَمْ يَمُضْ وَقْتُ كَثِيرٍ ، حَتَّى
تَزَوَّجْتُ مِنْ رَجُلٍ ثَرِيٍّ ، فَعِشْتُ مَعَهُ سَنَةً كَامِلَةً ، ثُمَّ مَاتَ ، فَوَرِثْتُ
عِنْدَهُ ثَرَوَةً كَبِيرَةً .. وَذَاتَ يَوْمٍ كُنْتُ جَالِسَةً فِي بَيْتِي ، فَدَخَلَتْ عَلَيَّ
عَجُورٌ شَمْطَاءٌ ، لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهَا قَبْلَ ذَلِكَ وَقَالَتْ لِي فِي تَوَسُّلٍ وَرَجَاءٍ :
- إِنَّ عِبْدِي بَنَانًا يَتِيمَةً ، وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ يُقَامُ عَرْسُهَا ، وَيُعَقَّدُ
قِرَائَتُهَا ، وَأَنَا وَهِيَ لَيْسَ لَنَا أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، يَكُونُ مَعَنَا فِي
لَيْلَةِ فَرَحِنَا .. لَقَدْ جِئْتُ أَدْعُوكِ يَا ابْنَتِي ، حَتَّى تَحْضُرِي عَرْسَ هَذِهِ
الْفَتَاةِ الْمَكْسُورَةِ الْخَاطِرِ ، ، فَتَقُورِينَ بِالْأَجْرِ وَالتَّوَابِ مِنَ اللَّهِ ..
- فَلَمَّا قَالَتِ الْعَجُورُ ذَلِكَ أَخَذَتْنِي الرَّاقَةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَقُلْتُ

لِلْعَجُورِ :



اطمئني يا خالة ، سوف آتي معك ، وأحضرك عرس ابنتك كأنني
أخذتها ، سوف أحضر لها بعض مصاغي ، وأجعل ثيابي ، حتى
ترتديها في هذه الليلة ، وسوف أزيئها بنفسي .. ثم نهضت
وارتديت أجمل ثيابي ومصاغي ، وأخذت بعضها معي ، ثم خرجت

أسيرُ مع العجوز ، فخرجنا من رُقاقنا ، وسرنا في شوارع بغداد
وطرقاتها ، حتى وصلنا رُقاقاً فخماً ، في حيٍّ من أرقى أحياء
بغداد ، فدخلناه وسرنا فيه ، حتى وصلنا إلى بوابة فخمة عليها
قبضة من الرُخام ، وخلف تلك البوابة قصرٌ فخْمٌ مُرتفع البنيان ،
حوّله حدائق ذات أشجار وثمار وأنهار ، وطرقت العجوز الباب ،
ففتح الباب في الحال ودخلت العجوز تتقدمني وأنا اتعجب من
ذلك وأقول في نفسي :

- هل هدم العجوز البائسة لملك هذا القصر ؟

وعندما صرنا داخل القصر ، رأيت من التحف والأثاث والرياش
ما لا عين رأت ، ولا خطر على قلبى من قبل ، ولا تخيلت أن أراه ..
ومشيت أنا والعجوز في دهاليز القصر ، حتى وصلنا إلى قاعة
فخمة ، مفروشة بالحريز ، ومُصانة بالشُموع والقناديل ، وفي
صدر القاعة سرير من المرمر ، مُرصع بالدرّ والجوهر ، وعليه
ناموسية من الحرير ، وما إن دخلنا القاعة ، حتى خرجت من خلف
الناموسية فتاة غابة في الروعة والحسن والجمال ، وما إن رأيته ،
حتى رحبت بي قائلة :

- أهلاً وسهلاً ومرحباً بك يا أختي .. لقد انسيتني وشرفنتني



وجيرت خاطري ..

فرددت عليها التحية بأحسن منها ، وتعجبت في نفسي قائلة :
 - هل من المعقول أن تكون هذه الصبيّة هي اليتيمة التي
 حدثتني عنها العجوز ؟ هل من المعقول أن يكون ذلك القصر
 قصرها ؟ وهل من المعقول أن تكون الليلة هي ليلة عرسها ؟ أنا
 لأرى آية مظاهر نوحى بذلك .. ولم يطل عجبي كثيرا ، لأن الفتاة ،
 التي لاحظت حيرتي بادرني قائلة :

- اعذّرني على أني لجأت إلى هذه الحيلة ، حتى أحضرتك إلى هنا . ولكن لم يكن أمامي سواها .. والحكاية باختصار أن لي أخا أحسن مني شكلاً وحسناً ، وكان قد رآك في أحد الأفراح ، وأعجب بك ، وهو يريد أن يتزوج منك على سنة الله ورسوله .. هذا إذا وافقت على هذا الزواج ، ورضيت بأخي زوجاً لك ، بعد رؤيتك له .. فلما سمعت كلام الفتاة ، ورأيت الحيلة التي اختلفت بها حتى أحضرتني إلى القصر ، قلت لها :

- لا بأس .. أحضري أخاك حتى أراه .. فما إن قلت حتى صفقت الفتاة بيديها ، فظهر شابٌ يحجل القمر من حسنه وجماله ، فلما نظرت إليه قلت في نفسي : سبحان الخلاق .. وقرأت الفتاة نظرات الإعجاب في عيني ، فقالت فرحة :

- هل نحضر المأذون والشهود ، حتى يعقد القران بموافقتك ؟ فأومأت لها في حجل بالموافقة ، فصفت الفتاة بيديها ، فحضر المأذون في الحال ومعه أربعة شهود .. وهكذا تم عقد قراني على ذلك الشاب ، فصيرت له زوجة ..

وهكذا انتقلت من بيتي ، لأعيش مع زوجي في قصره .. ومضت بنا الأيام سعيده ، حتى كان ذات يوم استأذنت زوجي في الخروج



إلى السُّوق لشِراءِ بعضِ القُماشِ لي .. فأذن لي زَوْجِي في
الخروجِ إلى السُّوق ، وكانت تلكَ العَجُوزُ ماتزالُ تقيمُ مَعنا ،
فاستطَحَبَتْها مَعِي إلى السُّوقِ ، لأنها كانتَ تعرفُ البُضائعَ والأسعارَ
أَفْضَلَ مِنِّي ، وَتُجِيدُ المُساوَمَةَ والْتِقَاءَ ما هوَ مُناسِبٌ لي ..
فلما وصلنا السُّوقَ اتَّجَهِتِ العَجُوزُ إلى دُكانِ تاجرِ قُماشٍ قائِلَةً لي :
- صاحِبُ هذا الدُّكانِ وَلَدٌ صَغِيرٌ ماتَ أبُوهُ وتركَ لهُ مالاً كَثِيراً ..

فَقُلْتُ لَهَا :

- مَا لَنَا وَنُقُودِهِ .. نَحْنُ نُرِيدُ قَمَاشًا .. ثُمَّ أَشَارَتْ لِصَاحِبِ هَذَا

الدَّكَانِ قَائِلَةً :

- هَاتِ أَفْضَلَ مَا عِنْدَكَ مِنْ قَمَاشٍ لِهَذِهِ الصَّبِيَّةِ ..

فَقَالَ الْفَتَى :

- سَمِعْنَا وَطَاعَةٌ ..

ثُمَّ أَحْضَرَ لَنَا أَفْخَمَ وَأَعْلَى قَمَاشٍ رَأَيْنَاهُ فِي حَيَاتِنَا ،

فَانْتَقَيْتُ مِنْهُ عِدَّةَ أَثْوَابٍ ، وَأَخْرَجْتُ كَيْسَ نُقُودِي لِأَقْدِمَ لَهُ تَمَنُّهَا ،

لَكِنِ الْفَتَى رَفَضَ ، وَقَالَ :

- هَذِهِ الثَّمَرَةُ سَتَكُونُ إِكْرَامًا لَكَ وَلِلْعَجُوزِ ، فَقُلْتُ لِلْعَجُوزِ :

- إِذَا لَمْ يَأْخُذْ ثَمَنَ الْقَمَاشِ رُذِيهِ إِلَيْهِ ، وَلِنُسْتَرِ مِنْ غَيْرِهِ ..

فَقَالَ الْفَتَى :

- لَأَحَاجَةَ بَكَ إِلَى رَدِّ الْقَمَاشِ ، وَسَوْفَ أَخُذُ تَمَنَّهُ ، وَلَكِنْ بَدَلِ

النُّقُودِ أَخُذْ قُبْلَةً ..

فَعَضَيْتُ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَاللَّغْنَةُ الْقَمَاشَ فِي وَجْهِهِ ، وَأَنَا أَهْمُّ

بِالْإِنْصِرَافِ .. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَحَوَّلَ الْفَتَى إِلَى جَبَّيٍّ وَهَجَمَ عَلَيَّ

فَعَضَّنِي بِقُوَّةٍ فِي وَجْهِهِ ، حَتَّى مَرَّقَ قِطْعَةً لَحْمٍ مِنْ خَدِّي ، فَصَرَخْتُ



صرخة قوية من شدة الألم ، ثم أغمى على ، فلما أفقت لم أجد أثراً
 للدكان ، ووجدت العجوز بجوارى حزيبة من أجلى وقالت لى :
 - ما دفع الله عنا من البلاء كان أعظم .. قومي لنعود إلى البيت ،
 فأشرفت إلى الجرح الغائر فى خدى قائلة :
 - وهذا الجرح الغائر فى خدى ، ماذا أفعل فيه ؟ فقالت العجوز :

- سأحضركِ لكِ دواءٍ يعملُ على التئامه وشفائه بسرعةٍ ، ولكنْ

إنيك أن تبوحى لزوجك بما حدث ..

وهكذا عُدنا إلى البيتِ سريعاً ، فنظاهرتُ بأننى مريضةٌ ، فلمأ

رأنى زوجى قال لى :

- ما هذا الجرحُ العميقُ فى خديك ؟! فقلتُ له :

- وأنا فى طريقى إلى السوقِ اليومِ زاحمى جملٌ يحملُ حطباً ،

فجرح الحطبُ خدى - كما ترى ..

فغضب زوجى وقال :

- غدا اذهبى إلى الخليفة (هارون الرشيد) وأطلبِ منه أن يتسقى كلَّ

حطابٍ فى هذه المدينة ، حتى لا يزاحموا الناس ويَجرحوهم هكذا ..

فقلتُ لأهدئ غضبه :

- لأريدُ منك أن تتحملِ ذنوبَ كلِّ هؤلاء الحطابين ، من أجلِ ذئبٍ

هم بريئون منه .. الحقيقةُ أننى ركبْتُ حماراً فتعثرَ وسقطتُ منْ

فوقه على الأرض ، فجرح خدى .. فقال :

- غدا اذهبى إلى الوزير (جعفر البرمكى) وأقصرْ عليه ما حدث ،

حتى يأمرَ بقتلِ كلِّ حمارٍ فى هذه المدينة .. فقلتُ له :

- هل أنت مُصبرٌ على قتلِ الناسِ كلَّهم بسببى ، وقد جرى



ما جرى لي بقضاء الله (تعالى) وقدره !

فقال غاضباً

- لاند من ذلك ، حتى اعلم سبب هذا الجرح ، وإذا اقمضى الامرُ

قتلك انت ايضاً قتلتك

- وصاح صئحة عظيمه ، هاتج باب العُرقة ودخل منه سئعة
عسد ، وكلّ منهمّ يحول سئعا مسئولا ، هاتار الهّم ، هسحنوى
ورمؤنى فى فئتصف العُرقة ، واتار إلى رئيسهمّ قاتلا .

- صرئها بالسئف ياسعد مرفها نصفين ، ثمّ ارطوها فى بئر
دحلة ، فهذا حزاء كل مرّ تسول له نفسه خيانة الامانة والكذب
فرفع العئد (سعد) بدد بالسئف عاليا وقال :

- استعدى لثغوت ، وانّ كائت لك حاجة فادكرها حتى بقصبيها
لك ، قتل انّ بقصى احلك

فنوسئت إليه فابله

- يا عند الحير ، مهيل على قللا هاسى مطلوبة وما جميت دئنا ،
حتى استحق عليه القتل

وتدكرت حالى وكيف انتفعت من العر إلى الدل ، بعئر دئب
جبيئة ورحت ائكى مستغطة روى ، وهى هذه اللخطة دحلت
العحور وادحت سئغطعه هى الاخرى ، داكرة له ماحدث ، واننى
لادئب لى فيما حدث من ذلك الجسى اللئيم ، وظلئت تلج عليه حتى
قال لها :

- قد عفوت عنها وراجعت عن قتلها ولكن لاند لى ان اترك فى



جسديها أثرا لا يفتح منه أبدا ..

وأحضر سوطا ، ثم ألهاه به على ضربنا ، حتى غابت عن الوعي ،

ثم أمر عبيده أن يحملوني في أثناء الليل ويلقون بي في بيتي ..

وهكذا أخذت أدوي اثار ضرب السياط على كفي وأضلاعي ، عدة

شهور ، حتى شفيت ، لكن اثارها ظلت باقية حتى الآن ..

ثُمَّ تَعَرَّفْتُ أُخْتِي هَذِهِ صَاحِبَةَ الدَّارِ ، وَرَأَيْتُ عِنْدَهَا هَاتَيْنِ
الْكَلْبَتَيْنِ ، وَأَخْبَرْتُهَا بِخَبْرِي ، وَأَخْبَرَتْنِي هِيَ بِخَبَرِهَا .. ثُمَّ
انْضَمْتُ إِلَيْنَا هَذِهِ السَّيِّدَةُ ، حَتَّى أَخَذْتُ تَقْوَمُ بِشِرَاءِ الْأَشْيَاءِ لَنَا ..
وَهَكَذَا عِشْنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ ، حَتَّى حَدَثَ مَا حَدَثَ وَجِئْتُمْ إِلَى دَارِنَا
أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ ..

فَلَمَّا سَمِعَ الْخَلِيفَةُ (هَارُونَ الرَّشِيدُ) هَذِهِ الْحِكَايَةَ تَعَجَّبَ عَجَابَ
الْعَجَبِ وَقَالَ مُخَاطِبًا صَاحِبَةَ الْبَيْتِ :
- هَلْ تَسْتَطِيعِينَ إِحْضَارَ تِلْكَ الْعَفْرِيقَةِ الَّتِي سَحَرْتَ أُخْتِيكَ
كَلْبَتَيْنِ ؟

فَقَالَتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ :

- لَقَدْ أَعْطَيْتَنِي شَيْئًا مِنْ شَعْرِهَا ، وَقَالَتْ لِي : إِذَا أَرَدْتَ إِحْضَارِي
فَأَحْرِقِي شَعْرَةً مِنْهُ وَسَوْفَ أَحْضَرُكَ لَكَ فِي الْحَالِ ..
سَأَحْضِرُهَا حَالًا ..

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ أَحْرَقْتُ صَاحِبَةَ الْبَيْتِ الشَّعْرَةَ ، حَضَرَتْ الْجَنِّيَّةُ ،
وَكَانَتْ مِنَ الْجِنِّ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا رَأَتْ الْخَلِيفَةُ (هَارُونَ الرَّشِيدُ)
الْقَتَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَتْ :

- اَعْلَمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ أَنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ قَدْ صَنَعَتْ مَعِيَ جَمِيلًا



ومغرُوفًا ، حيثُ أنقذتُ حياتي وقتلتُ عدوِّي ، فلما هبنا
صنعتُهُ أخَّاهَا معها سَحَرَتْهُمَا كَلْبَتَيْنِ ..

فَقَالَ لَهَا (هَارُونُ الرَّشِيدُ) :

- وَأَنَا أَرْجُوكِ أَنْ تُخَلِّصِيَهُمَا مِنْ سِخْرِهِمَا ..

فَقَالَتِ الْجَنِّيَّةُ :

- سَمْعًا وَطَاعَةً أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ ..

وَخَلَّصَتْهُمَا فِي الْحَالِ مِنْ سِخْرِهِمَا ، فَعَادَتَا فَتَاتَيْنِ ، وَشَكَرَ

الْخَلِيفَةُ (هَارُونَ الرَّشِيدُ) الْجَنِّيَّةَ .. ثُمَّ قَالَ ..

- الْآنَ نَشْرَعُ فِي بَحْثِ شَكْوَى هَذِهِ السَّيِّدَةِ الَّتِي عَلَى جَسَدِهَا أَثَارُ

ضَرْبِ السَّيِّاطِ .. لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَوَّلًا مَنْ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ ، حَتَّى نَحْضُرَهُ

وَنُعَاقِبَهُ ..

فَقَالَتِ الْجَنِّيَّةُ :

- إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ بِهَا أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ هُوَ وَلَدُكَ (الْأَمِينُ) .. وَحَكَتْ

لَهُ الْعَقْرَبِيَّةَ جَمِيعَ مَا جَرَى ، فَاحْضُرْ وَلَدُكَ (الْأَمِينُ) .. وَسَالَهُ عَنْ

صَبْحَةِ ذَلِكَ فَلَمْ يَنْكُرْهُ ، فَامَرَ الْخَلِيفَةُ بِزَوَاجِهِ مِنْهَا ، أَمَّا صَاحِبَةُ

الْبَيْتِ وَآخِنَاهَا فَقَدْ تَزَوَّجَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِأَحَدِ الصَّنَعَالِيكَ ،

الَّذِينَ رَدَّاهُمْ (هَارُونَ الرَّشِيدُ) إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَعَادَ كُلًّا مِنْهُمْ مَلِكًا عَلَى

مَمْلَكَتِهِ ..

(تَمَّتْ)

رقم الإخراج : ٢٣٧٩

الترقيم العربي : ٤ - ٣٤٩٦ - ٢٦٦٩ - ٩٧٧